

الفصل الثامن

تأسيس وتنظيم الكنيسة

- (أ) المسيح لم يؤسس الكنيسة ولم يردها ويبدو أن الحواريين من أهل الجليل لم يفكروا في هذا أيضا - صمت النصوص الإنجيلية - أسطورة سبق بطرس - الحواريون مهدوا للكنيسة دون إدراك منهم للأمر - جاهل المؤمنين وكنيسة الله - فكرة بولس عن الكنيسة قبل تنظيمها - كيف تحتم هذا التنظيم - مفهوم الكنيسة في بداية القرن الثاني .
- (ب) أصل الكنائس الخاصة - المثل التي احتذتها في تنظيمها - الجماعات الوثنية والمعابد اليهودية - ضرورة إنشاء الوظائف - الإسراع بالتطور - التأثيرات المختلفة التي يسرت إنشاء الإكليروس وقيام نظام الأساقفة .
- (ج) نظام الأساقفة الملكي - أصوله - زوال نظام الأساقفة الجماعي : أسبابه - مقاومة البدع واحترام السنن المأخوذة عن الحواريين - الأسقف كرئيس للكنيسة - نظرية إيجناس - الأسباب الخارجية التي مهدت لتحقيق هذه النظرية عامة - «قوائم» الأساقفة .
- (د) انتخاب الأسقف - شروط الانتخاب - سلطات الأسقف - حدود هذه السلطات - المقاومة داخل الإكليروس - إنشاء «هيئة الكنيسة» - التلرج فيها - التمييز في الأمة المسيحية بين رجل الدين ورجل العادي .
- (هـ) المفهوم الكاثوليكي للكنيسة - العناصر الأساسية لهذا المفهوم - دور كنائس الحواريين - المركز الفريد لكنيسة روما - الكنيسة في بداية القرن الثالث .

(١)

إن المسيح لم ينشئ الكنيسة ولم يردّها .

ولعل هذه القضية أكثر الأمور المحققة ثبوتاً لدى أى باحث يدرس النصوص الإنجيلية في غير ما تحيز ، بل إننا نؤكد أيضاً أن الفرض العكسى لا يمكن أن يوجد له سند تاريخى مقبول ، ولم يستطع رجال اللاهوت ، بكل ما أتوا من براعة ، حيال ذلك شيئاً . ومهما بلغ من فقر معلوماتنا عن تعاليم المسيح ، فإنها لتبدو لنا ، في مجملها ، كرد فعل ضد التعصب الضيق الأفق للشريعة الموسوية لدى اليهود ، وضد شعائهم التى تزيد في صرامتها عن الحد المعقول ، وإن كانت الشعائر والشريعة - بعد ذلك - من أزم اللوازم الأساسية لكل حياة تريد أن تشكل ، حقيقة ، كنيسة . ثم إنها لتبدو لنا حافزاً قوياً من حوافز « الاجتهاد الفردى » . فالإنسان يجب أن يرتفع روحياً نحو « أبيه » الذى فى السماوات ، بالاطمئنان والحب ، ثم بـ « التوبة » أيضاً ، أى : الرجوع النهائى عن خطاياهم ، بتطهير ضميرهم والتسامى بإرادته . وذلك بالذات هو المبدأ المضاد لفكرة الكنيسة . ولقد ذكرنا فيما سبق ، بالإضافة إلى ما نقول به هنا ، أن عيسى كان يتربح حلول مملكة الله الوشيك . ومن شأن هذا الأمل أن ينفى من منطقهم كل فكرة تتعلق بالتنظيم الدنيوى لأتباعه . ثم إن عيسى كان يهودياً ، خاضعاً تمام الخضوع لشريعة بنى إسرائيل الدينية - وإن عارضها ظاهرياً فى سبيل توسيع مداركها فعلياً حسب ما ظن أنه روحها الحققة . لهذا كله ، لا بد لنا من الإيقان بأنه لم يكن ليعمل فكره لحظة واحدة فى رسم خطوط ما نسميه بـ « الكنيسة » .

وإذا ما قلنا إن المسيح صرح للحواريين الاثني عشر بسلطة ما - وهذا محل جدل حتى اليوم - فما لا شك فيه أن الأمر لم يتعد منحهم بعض ما أوتى هو من سلطان في التبشير بالتوبة وبحلول مملكة الله ؛ ولم يصنع منهم « قساوسة » حيث لم يكن في حاجة إلى ذلك . وعلى أى حال فإننا عندما ندرس ما قام به هؤلاء الحواريون من أعمال ، لا نجد أنهم فكروا في إنشاء الكنيسة ، إذ ظلوا على إخلاصهم للدين اليهودى وداوموا بكل دقة على شعائره مؤمنين أيضا بأن المستقبل لمملكة الله ، وليس لكنيسة ما .

والنصوص الإنجيلية لم تنسب قط إلى المسيح تعبيراً مثل : « كنيستى » ، أو : « كنيسة الأب » ، إلا في مناسبة واحدة نقرأ فيها : « إنك أنت - بطرس - (بطرس - صخرة) ، وعلى هذه الصخرة سوف أبني كنيستى » (إنجيل متى ، ١٦/١٨ - ١٩) ولكن هذا الحديث المشهور ، والذي استغل أقصى الاستغلال ، لا يمكن بحال من الأحوال الاعتماد على صحته ، إلا إن أعلننا أن المسيح ، في ساعة من ساعات الغفلة والتيه ، قد تنكر لتعاليمه ، ولعمله ، ولرسالته ، بل لذاته أيضا^(١) . وإن النصوص والأحداث ، في نسلسلها ، لتدل دلالة قاطعة لا تقبل الجدل على أن أسبقية بطرس الحوارى - التى يقال فى إنجيل متى أن عيسى قد صرح بها - لم يكن لها أى حفظ من الواقع ولم توجد قط ، وعلى أن الأتباع الذين تجمعوا حوله وحول حنا ويعقوب لم بقدره ولم ينصتوا إليه إلا باعتباره رجلاً شرف بثقة الأستاذ وبمودته .

بيد أن الحواريين قد وضعوا - دون إدراك منهم - الأحجار الأولى لبناء

(١) راجع الفصول الثلاثة الأولى من كتاب المؤلف المطبوع بباريس عام ١٩٠٩ : « أسبقية بطرس

الكنيسة . وعندما نرى « السفن المأخوذة عن الحواريين » نستخدم فيما بعد على أنها القمة العليا المتزهة عن الخطأ في كل ما تقدمه الكنيسة ، فليس ذلك اختراعاً كله ولا تأليفاً ، وإن كان نتيجة لنوع من المبالغة في التقدير . وهذا أمر جدير بالتفسير .

يمكن القول بأن « فكرة الكنيسة » نشأت عن انتقال الأمل المسيحي من فلسطين إلى ربوع العالم اليوناني ، وأيضاً - إذا شئنا - عن تطور هذا الأمل إلى العالمية . مهما يكن من احتقار الناس للحياة الدنيا ، فلا بد لهم من أن يشعروا بنوع من الوحدة فيما بينهم ومن التضامن الذي قد تتفاوت قوة الرباط الناتج عنه ، عندما يتعلقون بأمل واحد للمستقبل ويسعون في سبيله إلى التخلص من مظاهر حياتهم الدينية السابقة . غير أن اليهود « الذين أظلمت قلوبهم » لم يلبثوا أن طردوا أتباع المسيحية من معابد المهجر ، سواء منهم من كان يهودى الأصل أو مريداً لليهودية . كذلك ترك الوثنيون الذين آمنوا معابدهم . والتف الجميع حول عبادة واحدة تمجد « السيد عيسى » . وكانت بطبيعة الحال عبادة بدائية ، إلا أنها انطوت منذ ذلك الحين على فكرة الاجتماع الأخوى (فالأتباع يطلقون على أنفسهم فيما بينهم كلمة « الإخوة ») ، والصلاة الجماعية ، وطقوس المعرفة ، وشعائر التقرب - سواء منها شعائر التقرب الخاصة بالاتحاد بين السالكين (وفي هذا المجال نرى الاتباع يسمى بعضهم بعضاً بـ « القديسين » ، وهو تعبير ذا مغزى) ، أو شعائر التقرب الخاصة بالاتحاد مع السيد وعلى ماثدته وكان هؤلاء القوم الذين « يتهلون باسم سيدنا عيسى المسيح » ويستطيعون أن يتسموا بـ « قديسى هذا المسيح » بل يعتبرون أنفسهم « إخوة فيه » مهما تباعدت ديارهم ، كانوا جميعاً أعضاء في « كنيسة الله » ؛ أى أنهم مهما تفرقوا أشتاتاً في

بقاع الأرض الشاسعة يظلوا لدى الله الصفوة المختارة من أمته .
وذلك مفهوم يعبر عنه بولس في وضوح تام . ونعتقد أنه عندما يتحدث عن
« كنيسة الله التي في كورنثيا » فإنما يعنى فقط - أنه سمح لنا باستخدام هذا
التعبير - « جزء كنيسة الله العالمية » الذي يقوم بتلك المدينة ، لاجاعة منظمة
أو هيئة كنسية أسست في كورينثيا ، ونفس فكرتنا هذه تفصيلا ، فنقول : إن
الفكرة الصوفية للكنيسة . « في » الله نشأت من ذاتها « فعلا » وبالضرورة في عقل
رجل مثل بولس ، قبل أن تظهر فكرة إنشاء تنظيم كنسى خاص . ففي الوقت
الذي يحدثنا فيه الحوارى عن كنيسة الله ، تدل رسائله على أن جماعة كورينثيا
تعيش في فوضى داخلية ، ونعنى بذلك أنها تركت زمام أمورها إلى توجيهات
الملمهين التي لا تسلك خطأ تنظيمياً محدوداً معروفاً . وإنما لنعلم علم اليقين أن
سائر الملمهين يمكن اعتبارهم أعداء الداء لكل إكليروس ؛ ولهذا السبب لم
يكن للجماعة إكليروس بعد .

ويمكن أن ندرك مفاهيم هذه الحياة التي كانت تعيشها الجماعات المسيحية
خلال عهدها الأول من الحفاصة والتهبؤات ، يمكن أن ندرك مفاهيمها عندما
نتأمل ما يروى لنا من أن « القديسين كانوا في مساء كل سبت من أيام الأسبوع
بترقبون ، مع فجر النهار التالى ، « عودة » السيد في اليوم الأعظم الموعود ،
ذلك الذى تطلعوا إليه بجماع قلوبهم . فلما مضت الأسابيع ، ثم الشهور والسنون
دون أن تأتى البشرى بـ « العودة » البيجة ، ظهرت أضرار الفوضى ومساوئها ،
في حين توثقت صلة الأخوة بين رحاب الجماعة ، وتسامى الأمل في الخلاص -
بفضل انفصال « القديسين » عن حياة العالم الدينية العامة - إلى مستوى الأديان
المستقلة . وعندئذ أصبح من المحتم التفكير في تنظيم مجتمع الصفوة المختارة .

وبالتالى بدأ الإجراء المقابل لما تم في تفكير بولس ، فتطورت كل طائفة محلية من الإخوة إلى كنيسة ، وكنيسة الله هي مجموع تلك الكنائس الخاصة ، التي تتبادل الرسائل والتوضيحية بالثبات ، والتي تعتمد كل واحدة منها على الأخريات . فهي إذن تنزع « أولاً » إلى الخروج عن كونها تعبيراً صوفياً للحقيقة ، لتصبح واقعا ملموسا ؛ ثم هي « بعد ذلك » تنزع إلى البحث لنفسها عن تحقيق مادي ، أى عن تنظيم وجودها ، من أجل مستقبل بعيد محتوم ، وباعتبارها - كما ذكرنا آنفاً - ظاهرة عامة مستقلة .

ونعتقد أننا ، إذا وقفنا على أعتاب القرن الثاني لتأمل المسيحية ، سوف نجد أن فكرة بولس الخاصة بوحدة المسيحيين جميعا في الله قد ثبتت تمام الثبوت ودعمت بالعقيدة الشائعة بين الناس والتي تقول بأنه ليس هناك في الحقيقة سوى دين صحيح منبج واحد يجب البحث عن أسسه القوية العميقة في « سنن الحواريين » . والفكرة الذائعة عامة هي أن هذه الأسس حفظت في « الكنائس الحوارية » ، أى تلك التي يقال إنها أنشئت بإيحاء من أحد الحواريين .

ولم تكن « الكنيسة » في الواقع قد بلغت سوى طور « الأخوة » بين المؤمنين المشتتين في مختلف الكنائس الخاصة . إلا أنه اتضح أن المسيحيين لا يميلون إلى الفردية في العبادة ، وأنهم - سواء في سبيل تدعيم العقيدة أو مقاومة الأعداء يحبون التجمع . وبالتالي فهم لا يفهمون أن تعيش كنيسة ما - مهما بلغ من استقلالها وسيطرتها على مقدرات أمورها - في عزلة عن بقية الكنائس ، كما لا يفهمون أن ينفصل « أخ » عن جماعة الأخوة بالمدينة التي يعيش فيها . بيد أن الأخوة المسيحية الكبرى ، أى كنيسة الله ، لم تكن قد تطورت بعد في تنظيم يبرز

كيانها المادى ؛ ولم يكن المراقبون من غير المسيحيين ليروا فيها سوى كنائس خاصة .

(ب)

ولا تزال نشأة هذه الكنائس الخاصة نفسها غامضة بعض الغموض بالنسبة إلى الباحثين . وإذا ما أردنا أن ندرسها في شىء من الإنصاف ، التى انطوت على كلتها ، أو مشكلة أحقية مريم العذراء فى لقب « أم » خنعوا ظاهرياً لرجال الإكليروس لديهم وأبدوا استعدادهم ليتلقوا عنهم قواعد الإيمان ، لم يكونوا فى الواقع على تلك الدرجة من السلبية التى ظنت بهم . بل أن الأمر أخطر من ذلك فى الحياة الدينية .

وكانت النماذج التى يمكن أن تحتذى فى هذا المجال متوافرة : فقد وجدت منذ زمن بعيد فى قسمة الإمبراطورية الرومانية ، اللاتينى والرومانى ، جماعات أو اتحادات دينية أنشئت من أجل غرض واحد : التعاون فى الخير أو الحث على التقوى ، وسميت عند اليونان بـ « الأران » أو « التباس » ، وعند الرومان بـ « الكوليجيا » . ونذكر على الأخص من بين ألوان « الكوليجيا » هذه ما أطلق عليه اسم « كوليجيا تنويروم » ، أى : جماعة مؤلفة من صغار الناس . وكان لكل جماعة مديرها المنتخب وصندوقها الذى تموله الاشتراكات ويشرف عليه مندوب خاص .^٥

ومن ناحية أخرى فإننا نعلم - وقد سبق لنا شرح ذلك - أن يهود المهجر كانوا يتجمعون حيثما التقوا - وإن لم يزد عددهم على أصابع اليدين حول معبد لهم ؛ وأنهم ، وإن اختلفوا أحياناً فى التنظيم ، كانوا يأخذون بقواعد وقوانين

محددة . لذلك كان المسيحيون - سواء منهم الوثني أو اليهودي الأصل - على علم بالأساليب المحتملة لإقامة حكومات تدير جماعاتهم .

ومن المرجح أن كلا التأثيرين ، تأثير الجماعات الوثنية وتأثير النظم اليهودية ، وقعا عليهم في آن واحد ، مع ترجيح اتجاه أحدهما على الآخر حسب ظروف الزمان والمكان . وقد فرضت الضرورات أنواع الوظائف ، وسمى الموظفون بأسماء أخذت عن اللغة الشائعة مثل :

« بريسييتروس » ، أى : شيخ .

و « إيسكوبوس » ، أى : مشرف .

و « دياكونوس » ، أى : خادم .

وقد تطورت معاني هذه الكلمات فيما بعد إلى : قس ، وأسقف ، وشماس . وتغلبت الجماعات ، في كثير أو قليل من البراعة والتوفيق ، على المشاكل الخاصة بتعليم الأتباع الجدد ، والمحافظة على النظام والآداب العامة ، وتدعيم سنن الإيمان الصحيحة ، وتأمين شعائر العبادة ، وضمان قوت المعوزين .

ويكفي أن نطالع « أعمال الرسل » ، و « رسائل بولس » ، ثم تلك الرسائل الثلاث المنسوبة إلى بولس ، وإن كانت لاحقة له ببضع سنين - والمسماة بـ « الباستورال » ، يكفي هذا لندرك مدى الإسراع في التنظيم منذ البدء فيه . ففي نهاية القرن الأول نلمح - في بعض الكنائس على الأقل - « أسقفاً » واحداً ، و « مشرفاً » عاماً على الجماعة كلها (وهو الشخص الذى سوف يسيطر بعد ذلك على جميع الوظائف) ، ثم إلى جانبها مجموعة من « الشيوخ »

تخصصوا في الوظائف الروحية ، ومن « الخدم » الذين وكلت إليهم الوظائف
المادية .

وكان من دعائم هذه التنظيمات الثابتة القوية ، ومن أسباب تحديدها :
ما نلاحظه بادئ ذي بدء من شك وريبة يزدادان بمرور الزمن - ونرجح أنه كان
لهذا الشك وهذه الريبة مبرراتها القوية - في أمر « الملهمين المتجولين » الذين
راحوا يحويون البلاد متخذين ألقاب « الحواريين » أو « الأنبياء »
أو « المبعوئين » . ويبدو أنه كان لهم أثر لا يستهان به على الجماعات في أول سنى
حياتها . وكان من الدعائم والأسباب أيضاً : تدهور نفوذ « الملهمين المحليين » ؛
إذ سئم الناس من كل ما هو خارق للعادة ومن المعاني التي لا يجدون فيها انسجاماً
واتساقاً . فإيمان العامة يتطلع بطبيعته إلى الثبات ؛ والثبات لديه مرادف
للحقيقة . و « المواهب » التي أفاضتها « الروح القدس » حسب ما شاءت على
جواهر قد يقل عددها أو يكثر من « الإخوة » لم تكن لتضيق بذلك على القوم ،
بل كان مصيرها المحتوم أن تنصب في روح « الأسقف » فتدعم من سلطته . ثم
نجد أن الرغبة في تنظيم الشعائر والطقوس ، ذلك العمل الذي تفرضه البيئة
المحيطة والذي يحتم وجود « متخصصين » ، كان لها أثرها في تحديد وتدعيم هذه
الوظائف ؛ إلى جانب ما وجدته من سند أخير في الفكرة التي سريعا ما تأصلت
لدى المسيحيين من أن الرعاة مسئولون أمام « السيد » عن الرعية التي أسلمهم
زمامها ، ومن أن المسئولية تستلزم السلطة .

واتسعت هذه التأثيرات جميعاً في نزعها إلى منح نفس الأشخاص الوظائف
التي كانت متميزة فيما مضى ، من تعليم وتبشير وإدارة ، أو - على الأقل - إلى
تحويل شخص واحد ، هو « الأسقف الأمير » ، الإشراف الأعلى على كل

الوظائف . وإن نشأة وانتصار « الأسقفية الملكية » ليعتبران المرحلة الأولى من المراحل الكبرى لتنظيم الكنيسة ، وكان لهما نتائج لا تحصى على كيانها خلال القرون التالية .

(ح)

سبق لنا القول بأن كلمة « أسقف » (إيبيسكوبوس) تعني « مشرف » . ونضيف هنا أنها كانت تستخدم أحياناً لدى الجماعات الوثنية كمرادف لكلمة « إيبيميليتس » ، أى : « مندوب » أو « وكيل » أو « مدير » فى بعض الأحوال ، مع تضمناها دائماً فكرة « الإشراف » . وفى البدء لم يشغل الأساقفة - وكانوا كثرة داخل كل جماعة - بالتعليم ولا بالتبشير إلا بوصفهم القدوة الطيبة التى يجب أن تحتذى . كان شغلهم الشاغل إقامة وتدعيم اتجاهات الكنيسة فى ممارسة الأخلاق الحسنة ومبادئ الإيمان الصحيح ؛ وكان لهم الإشراف الأعلى على ما يمكن أن نسميه بـ « المسائل الزمنية » للجماعة . والنصوص القديمة تقرب بينهم وبين « الدياكونوس » لا « البريسبيتروس » . وهذا أمر صغير فى حد ذاته ، إلا أن له دلالة فيما يتعلق بنشأة الوظائف الأولى وخصائصها .

ولقد نمت سلطاتهم سريعاً بعد أن تلاشى النظام الأسقفى الجماعى . ونحن لا نعلم تمام العلم كيف تم هذا التطور ، ولكننا ندرك بصورة أكثر وضوحاً الأسباب التى جعلت منه تطوراً محتوماً . ففي ذلك العصر الذى لم تكن رمزية الإيمان قد أثقلت بعد بالعقائد ، والذى نشطت فيه كل النشاط - بفعل البيئة

ذات الاتجاهات التأليفية - تلك التزعة الخطيرة إلى الإضافة والإعلاء التي مرت بها أغلب الأديان ، في ذلك العصر كان من الضروري أن تحاط جماهير المؤمنين بسياج دفاعي يصد عنهم « ذئاب » العالم الخارجي ، وأن تنظم حياتهم أيضا في الداخل ، أى : ضد « أصحاب البدع » . ورأى المسيحيون أن دفاعهم لن يزداد إلا قوة وبراعة إن تولى أمره زعيم فرد . والسلطات التي من شأنها تدعيم النظام وضمان التراحم الاجتماعي بدت أكثر فاعلية عند تركيزها بين يدي رجل واحد . ومن ناحية أخرى ، كانت الجماعات الوثنية واليهودية تميل عامة إلى اتخاذ « رئيس » يؤمن وحدة العمل فيها ويرمز إلى الترابط بين أعضائها . أما عند « الإخوة » المسيحيين فقد انتشرت سريعا تلك العقيدة التي تقول إن الحواريين سبقوا إلى التفكير في كل مشاكل الكنيسة المستقبلية وأوجدوا لها الحلول ، وأنهم هم الذين أنشؤا نظام الأساقفة من أجل ذلك . وصورت كل جماعة نفسها على أنها نوع من « التلخيص » لكنيسة السيد الكبرى ، رأسها الشرعى الأسقف الذى يتخذ في ذلك قدوة من المسيح رأس كنيسة « الله الكبرى » . وأخيراً ، قد أصبح الأسقف ، على أثر نمو الطقوس الدينية ، رئيسا للعبادات الجماعية ، وكان ذلك تطويعا حتمياً - وإن لم يكن طبيعياً في بعض جوانبه - لمفهوم « القس الأكبر » عند اليهود .

وهكذا نرى عوامل متعددة ، وذات أصول واتجاهات متباينة ، تعمل على تركيز السلطات الأسقفية بين يدي أسقف واحد . ولكن الأسقف لم يصبح حاكماً بأمره في كنيسته عقب تفرده بتلك الوظيفة مباشرة ؛ بل نراه ، خلال فترة قد تطول أو تختصر حسب ظروف البيئة المحيطة ، رئيساً لـ « البريسبيتريون » ، أي ذلك المجلس الذى يتكون من مجموع « البريسبيتريوم » في كل كنيسة .

إلا أن تلك كانت مرحلة من المراحل فحسب في تاريخ الكنائس الخاصة ؛ وقد تخطتها بعض كنائس آسيا منذ بداية القرن الثاني . ففي هذا القرن ، كان إيجناس الأنطاكي يعلن أن الأسقف هو ممثل الله في الكنيسة ، ولا يصح لأحد أن يأتمر بأمر غيره فيها ، ومخالفة ذلك رجز من وحى الشيطان . وكانت الفكرة الضمنية المتعارف عليها بطبيعة الحال : أن الأسقف لا يقوم بعمل إلا بالاتفاق مع هيئة « البريسبيتروس » و « الدياكونوس » . ولكن إيجناس يقول في نهاية حديثه : « لتكن أعينكم معلقة بالأسقف حتى ينظر إليكم الله » ؛ ويقول : « عليكم بتمجيد الله والأسقف » ! . . ومن العسير أن يبلغ إنسان في هذا الاتجاه شوطا يفوق ما تقدمه لنا نصوص إيجناس من معانٍ .

وفرض النظام الأسقفي الملكي نفسه بالتدريج على سائر الكنائس فيما بين عام ١٣٠ و عام ١٥٠ على وجه الترجيح . ودعمت انتصاره الأزمت العديدة التي مرت بها الكنيسة بعد ذلك : من اضطهادات تشتت « الرعية » وتقضى على جموع كبيرة منها ، ثم - وهذا أهم ما نراه من آثار - عودة مرتدين كثيرين يرغبون في العودة إلى رحاب الكنيسة التي لم تكن لتقبلهم من جديد إلا بعد اتخاذ الحيطة اللازمة ، ومن بدع ترتبت خاصة على التركيبات التأليفية لفروض الإيمان الأساسية مع أساطير شرقية قديمة ونظريات فلسفية يونانية ، واتضح خطرها البالغ حيث كانت عامل إغراء لـ « المفكرين » من « الإخوة » ثم لأهل التصوف من بعدهم ، أو على العكس لكل هؤلاء الذين يفتنهم المظهر العملي الفعال للطقوس السحرية . وعلى أى حال فقد اقتدت الكنائس بعضها ببعض ، بحيث تلاشت سريعا مظاهر المقاومة التي أبدت أحيانا تجاه تطور النظام الأسقفي . وصار المسيحيون ، في بداية القرن الثالث أحوالى ذلك ،

يؤمنون عامة بأن وحدة التنظيم يجب أن تكون موازية لوحدة الإيمان وألا تقل أهمية عنها .

ومنذ ذلك الحين ، بدأ العمل النشط في سبيل تبرير الأمر الواقع . فشاع الاعتقاد بأن النظام الأسقفى الملكى إنما أنشأه الحواريون أنفسهم ، وتقدمت كل كنيسة يقائمة للأساقفة ترجع بها إلى الحواري الذى أنشأها ، أو إن لم يتيسر لها الاعتماد على حوارى فإلى تابع من أتباعه أو مندوب من كنيسة حوارية كان له الفضل الأول في تأسيسها . واتخذ لسلطة الأسقف رمزا من ذلك الكرسي (« الكاتيدرا ») الذى زعموا أن قد جلس عليه سائر الخلفاء . فإذا ما قيل مثلا : « كرسي بولس » ، فإنما يعنى ذلك : « سلطة أسقف روما » . وعلة هذه السلطة هى « سنن الحواريين » ، مثلها في ذلك مثل « شروط الإيمان » . ولن يبحث الباحثون عن تبريرات إنجيلية للنظام الأسقفى الملكى إلا في عهد متأخر ؛ ولقد وجدوها في إنجيل متى خاصة (١٦ / ١٩) : « ولأعطيتك مفاتيح مملكة السموات . ولسوف يعقد أيضا في السموات كل أمر تعقده في الأرض . ولسوف يحل أيضا في السموات كل أمر تحله في الأرض » .

(٥)

كان الأسقف ينتخب بواسطة الشعب ، ثم كان ينصب عضواً في السلك الكنسى بواسطة الأساقفة المجاورين . وكان للشعب ، نظرياً ، الحق في اختيار من يشاء . غير أننا نلمس منذ ذلك الحين محاولات تهدف إلى تجريده من هذا الحق ، فضلا عما كان يتلقاه من إحياءات وتوجيهات من طرف « البريسبيترس » و« الدياتكونوس » في هذا الشأن ، إحياءات وتوجيهات

لا تخرج عن حدود الشرعية وتترتب عليها في أغلب الأحوال آثار هامة . وقد نرى أسقفا يعين خليفة له ، أو مجموعة من الأساقفة يقومون بعمله وظيفته شاغرة بمطلق إرادتهم الجماعية . ولكن هذه الأمثلة لم تكن بعد سوى حالات استثنائية أملت التصرف فيها ظروف خاصة .

وكانت شروط الانتخاب ما تزال مرنة واسعة : يطلب من الأسقف المرشح أن يقدم دليلا على أخلاقه الطيبة ، وضمان ذلك أن يكون متزوجاً أو أرمل ؛ ويطلب منه كذلك أن يكون ذا إيمان قوى ، أى ألا يكون من الوافدين الجدد على المسيحية . أما المؤهلات الثقافية فكانت مسائل ثانوية ؛ وأما السن فلم يكن بعد قد اتخذ مكانه كشرط هام ؛ إلا أن القوة الجسمية العامة كانت من مستلزمات الوظيفة ، وإن تسامح أولو الأمر بعض التسامح في هذا الشرط . ولم تكن قد فرضت بعد أى شروط تتعلق بالوظائف السابقة في الكنيسة ، أى أنه كان باستطاعة الشعب أن يختار لوظيفة الأسقف « أخواً » بسيطاً من الإخوة . غير أن الأساقفة - على الأقل - بدءوا يتجهون إلى المطالبة باختيار المرشحين من بين الذين تدرجوا قبل هذا في وظائف كنسية أخرى ؛ وتلك حيلة لا بأس بها . ومنذ ذلك العهد الأول السحيق ، وبرغم تعرض صاحب الوظيفة في بعض الأحيان للمخاطر ، بل للتهلكة ، نجد التنافس والتآمر للحصول عليها يزيدان على الحد ؛ ذلك أنها كانت إغراء قوياً لتلك الروح المتأصلة في الإنسان ، روح السيطرة ، التي لم يستطع المسيح نفسه ، حسب ما ترويه لنا الأناجيل ، أن يبق منها الحواريين . وكان المفروض في الأسقف أنه المسئول أمام الله عن إيمان وخلق وطاعة كنيسته ، غير أن هذه المسئولية المروعة في حد ذاتها لم تكن إلا لترفع من صورة صاحبها في أعين قومه وفي عينه هو أيضاً . والواقع أن

الإدارة الدينية والأخلاقية للجماعة كانت له ، وكذلك أصبحت له سلطة التنظيم والعقاب التي كانت من قبل لمجلس الإخوة . وكان له أيضاً أن يعزل كل مخطئ يقوم في رأيه بعمل غير لائق ، فلا يقبله في طقوس القربان وينفيه بذلك نفيًا خارج حدود الجماعة . وكان يدير الكتبة ، ويشرف على المسائل المالية ، وينظم المعونات والصدقات المقدمة إلى الفقراء ، ويقوم إذا لزم الأمر بدور القاضي بين رعيته . وكانت وظيفته تعتمد خاصة على إقامة الطقوس القدسية ، فهو يعمد ويسمح بالقربان ، وتلك هي الصلاحية التي جلبت له ، من بين كل صلاحياته ، أكثر قسط من التقدير والنفوذ . وإن أهميته في هذه الناحية لسوف تزداد بعد ذلك بتأصيل المفهوم السحري لطقوس الأسرار الفعالة في شعائر العبادة . فإذا أضفنا إلى كل ذلك ما فرض على الأسقف من عبادة المرضى وحث الناس على الصبر وبعث الأمل لديهم ، لأدركنا أبعاد دوره وجوانب سلطاته المختلفة .

ولم يكن لهذه السلطات من حدود ، في الحقيقة ، سوى استغلال الأسقف لها ، مما أثار بعض ألوان المقاومة لدى صغار الموظفين ولدى الأتباع ، بل أدى ، عندما قضت الضرورة بذلك ، إلى أنواع من « الإضراب » والاحتجاج ، كانت تضطر الذي خرج عن جادة الصواب إلى التنازل عن منصبه ، أو تضطر زملاءه من الأساقفة الذين أقاموه في هذا المنصب إلى عزله . ومهما كان من نفوذ الأسقف بين جماعته ، فهو لا يعدو أن يكون « أخاً » من الإخوة بالنسبة إلى الجماعات المجاورة ، إذ يستقبل فيها بالاحترام الواجب له ، ولكنه لا يستطيع حتى أن يتحدث إلى مجلسها إن لم يسمح له الأسقف المحلي ، صراحة ، بذلك . وكانت كل كنيسة ، قانوناً ، لا تزال صاحبة الأمر المطلق

والحرية التامة في تنظيم إيمانها ولوائمها كما تشاء . غير أن خطورة هذا الاستقلال الانعزالي بدأت تظهر بوضوح . ولو دام الحال كما كان عليه لما قامت للكنيسة الكاثوليكية قائمة ، ولتفرق المسيحيون في شيع ضئيلة الشأن مشتهة . ولحسن الحظ ، أصلح المراس العمل للحياة الدينية من ثغرات القانون : فقد اهتمت كل كنيسة في بادئ الأمر بأحوال جاراتها ؛ وانخذت الكنائس الصغرى ، على الأخص ، قدوة لها من الكبرى ؛ وتنقل المؤمنون في الكنائس المختلفة ، رابطين بينها أحياناً بأواصر صلات قوية ثابتة ؛ وتزاور الأساقفة المتجاورون ، واهتموا على الأخص بالتراسل ، بل أصبحوا يجتمعون في ندوات صغيرة ليتشاوروا في الأمور التي تثير حيرتهم . وهكذا بدت سلطة الأسقف الملك ، في القانون والواقع على حد سواء ، دعامة التنظيم الكاثوليكي الجوهري ، وذلك قبل أن تنبت فكرة البابوية بزمن طويل .

ولقد انتصر الأسقف في يسر على المدنيين من غير رجال الكنيسة ، فجردهم من الصلاحيات التي كانوا يمارسونها في رحاب الجماعة الأولى . إلا أن صراعه كان أقسى مع موظفي الكنيسة الدينيين من « البريسبيروس » و « الديقونوس » . ولدينا دلائل تشير إلى ألوان من المقاومة العنيدة . ولكن هذه المقاومة لم تكن شيئاً حيث لم يتحد أصحابها ولم ينسقوا أهدافهم ، ثم - وهذا هو السبب الأساسي - لأنها لم تجد لها سنداً من مبادئ أو تبريرات يمكنها أن تقف في مواجهة تلك التي اعتمد عليها نظام الأسقفية الملكية .

وبعد انتصار الأسقف النهائي ، انتظم موظفو الكنيسة الآخرون - الذين لم يعرفوا بـ « الإكليروس » إلا في القرن الثالث - انتظموا إلى جانبه في « هيئة » ،

أى : فى طائفة خاصة متميزة بين جمهور المؤمنين . وأصبح الدخول فى هذه الهيئة بـ « التنصيب » ، الذى يتصرف فيه الأسقف تصرفاً مطلقاً . والتنصيب لم يكن بعد سوى تسليم الموظف مهام وظيفته ؛ ثم صاحب ذلك الإجراء تدريجياً نوع من الطقوس الخاصة يختلف باختلاف الوظيفة ، وامترجت به فكرة تحقيق المواهب التى أصبحت مفهوماً قدسياً فى الهيئة ، إلا أن تلك الأمور كانت لاتزال فى طى الغيب فى القرن الثانى الذى نتحدث عنه .

وفى هيئة الإكليروس هذه (« أوردوكليز يكاليس ») ، نجد طائفة « الدياتكونوس » الذين يجب ذكرهم أيضاً بعد ذكر الأسقف لأنهم هم عون له ، ويعدون أعيناً تنظر وتجمع المعلومات ، وسواعد تعمل من أجله . ولسوف تمثل العلاقة بين الأسقف وبين الطائفة فيما بعد بتلك التى كانت بين موسى وهارون . ولم يلبث أن ظهر فى الكنائس الكبرى موظف جديد ، ليرأس مجموعة « الدياتكونوس » ؛ وفى خلال القرن الرابع نرى أفراد هذه الطائفة أحياناً يرفضون الخضوع الوظيفى للقسس ، وهم فى ذلك على حق من حيث المبدأ ، إذ أن وظائفهم لم تكن فى أصل نشأتها أقل أهمية من وظائف « البريسبيتروس » ، بل كانت ذات طبيعة مختلفة وكان الواجب أن ينظر إلى الطائفتين بالتوازي لا أن يبحث أمر خضوع إحداهما للأخرى . بيد أن الزمن محا شيئاً فشيئاً هاتيك الاختلافات الأساسية ، بحيث ذهبت المؤتمرات الكنسية فى القرن الرابع إلى الحكم بالخطأ والإثارة الفاضحة على موقف « الدياتكونوس » الذين يرفضون التبعية للقس فى الصلاة وفى طقوس القربان .

أما القسس « البريسبيتروس » ، فيبدو أن أصل نشأتهم يرجع إلى نظام « مجلس القدماء » (« سانهيدران ») فى المعبد اليهودى وكانوا يشكلون فى أول

الأمر ، مجلس الجماعة الذى يدير أمورها فى الواقع . ثم اقتصرت وظائفهم تدريجياً على المجال الروحى ، وأصبحوا بعد قيام الأسقفية الملكية مندوبين للأسقف ، أو إذا اقتضت الضرورة نواباً عنه فى الوظائف الخاصة بالمسائل الروحية . ولهذا فهم يعتبرون أنفسهم أعلى درجة من « الدياكونوس » الذين ظلت صلاحياتهم محددة فى البداية بالأعمال الإدارية المادية .

ولما نمت معالم الحياة الكنسية واتخذت مراسم الشعائر فيها مكاناً ممتازاً ، أضيفت شيئاً فشيئاً ألوان جديدة من الوظائف الثانوية المتخصصة إلى هيئة الإكليروس بجانب القساوسة و« الدياكونوس » ؛ فنجد منذ بداية القرن الثالث أو حوالى ذلك ، « حراساً لباب الكنيسة » و« قراء » وغير ذلك من الموظفين . وكان أمر اختيارهم متروكاً للأسقف ؛ واستقر التقليد بالتدريج على اعتبار هذه الوظائف المساعدة تجربة تتمحن فيها « المواهب » وتدعم لتتجه بعد ذلك وجهتها الأصلية فى أعمال « الدياكونوس » أو القسس ، بل الأساقفة أيضاً . وكان المفروض بطبيعة الحال فى هؤلاء الموظفين الصغار أن يتميزوا بأخلاق قوية وسمعة طيبة ، إلا أنه كان يسمح لهم بالزواج ، حتى بعد إجراء « التنصيب » .

وكان الإكليروس فى هذا العصر يشتمل أيضاً على مجموعات من النساء ، أطلق عليهن الاسم المؤنث من « دياكونوس » ، أو لقب « عذارى » أو « أراميل » ؛ إلا أننا لا نستطيع أن نميز بوضوح بين الوظائف المعينة المقابلة ولاشك لكل درجة من هذه الدرجات ، ولا أن نحدد اختصاصات أى منها . ونفهم فقط أن هاتيك النساء الملحقات بالكنيسة ، لم يطلب منهن القيام بالتعليم ولكن بالخدمة . ويبدو أنهن كن أيضاً معاونات للأسقف فى اتصالاته

بـ «الأخوات» في نطاق الجماعة . ويبدو أن الحذر من فتنة الجنس كانت شديدة بين المسيحيين ، وناشئة عن التجربة ، ولذلك اتخذت الحيطه اللازمة للحفاظ على الموظفين من تلك الفتنة ، وإن تم ذلك أحياناً بكثير من السداجة الصبانية .

وكان كل هؤلاء الموظفين يعيشون ، من حيث المبدأ ، على الرزق الذى يجدونه في « مذبج » الكنيسة ، من هدايا وتبرعات الأتباع ؛ ولكنهم في الواقع اقتدوا بما فعله بولس الحوارى ، فراح العدد الوفير منهم يعمل إلى جانب وظيفته في بعض الصناعات اللائقة .

وظلت الجماعات المسيحية فترة طويلة تنتظم في مجتمعات مصغرة - على غرار جماعات اليهود في بلاد الوثنية - يتمتع فيها سائر الأعضاء بالمساواة الدينية التامة ، فيجدون بالتالى أن قيام بعضهم بالوظائف الكنسية لايفرق بينهم وبين بقية « الإخوة » من حيث « الجوهر » ، وإن ميزهم من حيث الشكليات . ولكن ذلك تغير شيئاً فشيئاً في العهد الذى سادت فيه الشعائر ، والعادات ، والفكر ، والتنظيم ، بل بالمبدأ العام للقيادة الموحدة - في انتظار تكوين الهيئة التى تحتم إنشاؤها بعد ذلك والتي سوف توضح هذا المبدأ وتطبقه مستقبلاً . ويبدو أن المفهوم الكاثوليكي إجمالاً ، ينبع أساساً من عنصرين جوهريين : أحدهما نستطيع أن نستخلصه من الحياة العملية ، والآخر من ميدان النظريات .

فقد القرن الثانى كان « ترتوليان » يعبر عن العقيدة السائدة بقوله إن « المسيحيين جسد واحد » ، يجب على أعضائه أن يظلوا متحدين لمصلحة المجموع ولتثبيت الحق . . ولم تكن هذه الوحدة الأخوية ، على أى حال ،

لتعتمد إلا على الإيمان بـ « وجوبها » هي نفسها وعلى الإرادة الجماعية الخالصة . ولم يكن القوم يبحثون عندئذ في إخضاع كنائس معينة لأخرى ، وهو الإجراء الذى كان من شأنه تيسير المشكلة إن لم يؤد إلى حلها . ولاأزيد على ذلك مثلاً سوى موقف القديس سيربان أسقف قرطاجنة فى القرن الثالث - وكان من كبار الدعاة إلى الوفاق - تجاه إيتين أسقف روما . فقد أثار سيربان جميع أساقفة أفريقيا ضد هذا الأخير بشأن مشكلة من مشاكل التنظيم ، معتمداً فى قوة على الحق المطلق الدائم الذى تتمتع به كل كنيسة فى أن تحكم بما تشاء بين رعيتهما ومؤكداً لهذا الحق . ولقد نشأت فكرة « الوحدة المسيحية » فى الواقع من الاتصال المتكرر بين الجماعات المختلفة ، ومن الأحاديث بين الأساقفة ، ومن تبادلهم الرسائل بشأن المشكلات التى تهم الجميع كتحديد موعد الاحتفال بعيد الفصح أو الاتفاق على موقف موحد بالنسبة إلى مذهب جديد أو بدعة معينة . وذلك هو العنصر الجوهرى الأول الذى أشرنا إليه .

أما العنصر الثانى ، فهو « فكرة الإيمان الكاثوليكي » ، وهى تعنى أولاً : الإيمان المشترك العام المقابل للإيمان الفردى الخاص ، أى للبدعة . وسبق لنا القول بأن هذا الإيمان « الطبيعى » كان - فى العقيدة الشائعة - هو هو إيمان الحواريين ، حفظته الكنائس التى أنشؤها فى سنن كتب لها الدوام . ورأينا الكنائس تعلن ، كنتيجة حتمية للرأى المذكور ، أن لا خلاص بغير هذا الإيمان . وينمى القديس إيرينييه - أسقف مدينة ليون فى الربع الأخير من القرن الثانى - ذلك الرأى الذى كان من آثاره العملية تدعيم فكرة الأولوية الشرفية للكنائس الحوارية ، أى أنه بدأ يحدد ما يمكن أن نسميه بالإطارات الإدازية المستقبلية للكاثوليكية . ولم يظهر « المطارنة » بصورة رسمية إلا فى بداية القرن

الرابع ، ولكنهم وجدوا بالفعل قبل ذلك بزمان طويل . وبعبارة أخرى نستطيع القول بأن الكنائس الكبرى ، أى كنائس المدن الضخمة ، بدأت شيئاً فشيئاً تؤثر على الجماعات الصغرى المجاورة لها بشكل يشبه السيطرة . ولم يكن على المؤتمرات الكنسية بعد ذلك سوى أن توافق وأن تعطى الصفة القانونية الرسمية لما كان قد تم فعلاً ، وذلك عندما اعترفت في القرن الرابع بسلطات الأساقفة المطارنة (المركزيين) .

ولو فكرنا قليلاً في الظروف المواتية التي اجتمعت لكنيسة روما فسمحت لها بأن تسيطر على كنائس الغرب ، لما استغرنا أن نراها تحقق هذا الهدف في يوم من الأيام .

لقد قيل عن هذه الكنيسة إنها ابنة بطرس الحواري ، وبرغم أن بها كرسيه وقبره ، وزارها بولس الحواري ، ومات بسيف الجلاذ على مقربة من أحد أبواب المدينة ، كان استشهاده تدعياً لعمل بطرس . وكانت كنيسة روما ، منذ السنين الأولى من نشأتها ، معروفة بكثرة أعضائها وبغناها ، وتشهد مقابرها بذلك ؛ كما أن وفرة صدقاتها على الكنائس الأخرى وكرمها جعلها إيجناس يصفها بأنها «قائدة الرحمة» . وكان نفوذها يتخذ له سنداً من نفوذ عاصمة الإمبراطورية الرومانية . ولم تعارض كنائس الغرب الأخرى - التي كانت كنيسة روما أمماً لها في كثير من الأحيان ، ولعلها كانت أقدمها قاطبة في الوجود - لم تعارض في منحها الأسبقية الشرفية التي تحتمت لها ، وذلك قبل أن تفكر هي في استغلال مختلف النصوص الإنجيلية لتبرير أسبقيتها شرعاً .

وهكذا نرى ، مند بداية القرن الثالث ، أن الكنائس وصلت إلى التنظيم الذى سوف تحتفظ منه - على أقل تقدير - بالإطارات ؛ وأنها اتجهت إلى فكرة

الدوام في هذا التنظيم . كذلك نرى الكنيسة العالمية تخرج من مجال التجريد والأحلام لتحقيق ذاتها في الاتحاد والتعاهد بين الكنائس الخاصة ؛ ولن يكون على المستقبل بعد هذا إلا أن ينمى المبادئ والمقدمات التي أنشئت منذ ذلك العصر .

ولنذكر منذ الآن أن هذا التنسيق للمسيحيين في جماعات منظمة مغلقة ، ثم هذه التزعة التي ذكرناها نحو الكاثوليكية - (العالمية) ، كان من شأنها ، ظاهرياً : أن يفسح المجال للتعصب المسيحي ، وأن يبرز موقف المؤمن في معارضته للكافر وكرهية المجتمع المسيحي لمختلف المجتمعات الأخرى . ولكننا ، إذا فحصنا الأمور عن كثب ، نرى أن شيئاً من ذلك لم يكن ، فالكنائس ، على عكس ما تدعى ، لا تعيش منعزلة عن الوسط الذي يحيط بها ، بل تعيش فيه ، وتعيش به ومنه ، وتعدّ منظمات بدیعة تهضم في اتجاهاتها التأليفية كل ما تجده من قيم دينية ذات بال في الديانات المجاورة ؛ هذا بالإضافة إلى أن التزعة إلى الكاثوليكية تساعد على الموازنة والتنسيق في وحدة منسجمة بين العناصر الخاصة المتباينة .

ومنذ ذلك العصر ، نستطيع أن نلمح في أعماق الكنيسة الأسباب الجوهرية التي تفسر التغير الجذري الذي طرأ على موقف الدولة والمجتمع منها في القرن الرابع .